



الخميس 28 يوليو 2022 12:50 م

لئن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فراقه حزب محمد صلى الله عليه وسلم باكياً ، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً، ليقول: ( أضحكني: مؤمل الدنيا، والموت يطلبه ، وغافل، ليس بمغفول عنه ، و ضاحك بملء فيه ولا يدري أَرْضَى الله أم أسخطه ) .

وإنما هو ضحك التعجب من صورة حيوية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس، يرى خلالها أنماطاً من الغفلة تحرف شدة طمع تصاحبها بعض الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرهم من حولهم، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يحيى أولئك.

فالناس في غفلاتهم \*\*\*\* ورحى المنية تطحن

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة ، لكنها سرعان ما تتحول إلى شفقة ورحمة تأبى إلا أن تصدم الغافل صدمة إيقاظ تخرجه عن سكونه.

رحمة حركت أبا الدرداء برفق فأنى إلى هذا الذي أضحكه فنقر بأصبعه على كتفه فالتفت ، فهمس في أذنه أن : ( ويحك كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربع أذرع من الأرض )، وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق ، إن كان انخلع من غفلته أم سدر فيها ولكنها ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية ، وأن ما ذرعه لم تزد الأيام سعة وطولاً ، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد ، يروها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد.

يوم الحصاد

مشهدها الأول : يوم الحصاد : يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع.

وليس في التشبيه مفارقة ، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد ، من بين موت شهادة ظاهر نفعه ، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار و ادكار.

وذلك ما صوره الشاعر حين خاطبك فقال:

ما أنت إلا كزرع عند حُضرته

بكل شيء من الآفات مقصود

فإن سَلِمَت من الآفات أجمعها

فأنت عند كمال الأمر محصود

أو قد يسمى هذا اليوم:

يوم الصراخ ، و ذاك حين يعرق الجبين ، و يتتابع الأنين ، وتكون الغرغرة ، وتبرد الأعضاء ، وتستبد السكرات ، فيفتضح الضعف ، فيعلو الصراخ.

باكيات عليك يندبن سَجوا

## خافقاتِ القلوبِ و الأكبَادِ

يتجاوبن بالزنين و يذرفن

دموعاً تفيض فيض المزادِ

فيأتي من يحبشهن جانباً ، ليغسلوك على عجل.

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء ، فينادي : ألا إن وراءنا أشغالنا فاستعجلوا!!!

كما هو الخلق القديم في الغاسلين ، منذ عصر من قال:

كأن لم أكن إذ احتث غاسلي

و أحكم درجي في ثياب بياض

و ما هي إلا أذرع أربعة من القماش الرخيص، كتلك من الأرض السبخة ، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب

فلا تنس يوماً تسجى على

سريرك فوق رقاب النفر

فإن كنت صالحاً : استبشرت تلك الساعة ، ولبنت تصيح طرباً قديموني ، تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال:

(إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت غير سالحة قالت لأهلها : ياويلها ! أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق.)

ثم يوم الرقاد

و تنتقل القصة إلى مشهد ثان يسمى: يوم الرقاد الطويل ، يبدأ بملكين يفتنان الميت ، ذكر خبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ( أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال . فأما المؤمن أو المسلم فيقول : محمد جاءنا بالبينات ، فأجبتنا وأمنا.

فيقال : تم صالحاً ، علمنا أنك موقن.

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ) .

و ذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر ، أن : ( العبد إذا وضع في قبره و تولّى و ذهب أصحابه ، حتى أنه ليسمع قرع نعاليهم ، أتاه ملكان فأقعداه.

فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟

فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيقال : أنظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً.

و أما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال : لا دريت ولا تليت.

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنية ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ) .

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة ، ويهجم هجومه فيستسلم الرجل ويدعن و يأخذ يقول كأنه يستزيد:

ضعوا خدي على لحدي ضعوه

و من عفر التراب فوسدوه

وشقوا عنه أكفاناً رفاقاً

وفي الرمس البعيد فغيّبوه

فلو أبصرتموه إذا نقصت

صبيحة ثالث : أنكرتموه

وقد مالت نواظرُ مقلتيه

على وِجَناته ، فرفضتموه

فهناك يكون السكون ، حيث تصفر الرياح على نلال هامة واطئة ، فيصل صفيُرُها إلى آذان أمهاتٍ تكالى يخرجن  
ببلاهة يقودهن الصفيِر إلى قبور أبنائهن ، لتسأل كل واحدة منهن ابنها:

بأي خديك تَبْدَى البلى و أي عينيك إذاً سالا ؟

فيجيبهن صوت بعيد، من حيث القبر الأخير المنزوي:

لم تبق غير جماجم عَرِيث

بيصُ تلوح، و أعظمُ نَجْره

و يشني آخر:

لا يدفعون هَواماً عن وجوههم

كأنهم خشب بالقاع منجِدُ

أو يرد صوت ثالث:

هجوُذ ولا غير التراب خَشِيَة

لجنِبٍ ، ولا غير القبور قِبابُ

أو يخبرهن رابع:

قد أصبحوا في برزخ

و محلة متراخية

ما بينهم متفاوت

و قبورهم متدانية

فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل موحشين ، وذوي محلة متشاسعين ، لا يستأنسون بالعمران ،  
ولا يتواصلون تواصل الإخوان . قد اقتربوا في المنازل ، وتشاغلوا عن التواصل حتى طحنهم بكلكِيه البلى ،  
وأكلهم الثرى .

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هو بفضولي ، وعساه عند عمر بن عبد العزيز أو عنبسه أو القرظي يتدرب ،  
فيسألهم:

أبن الوجوه التي كانت محجبة

من دونها تُضربُ الأستار و الكِلَلُ

و يميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هم بقادرين عليه ، فتنوب عنهم التلة الصغيرة تجيب..

و أفصح القبز عنهم حين ساءلهم

تلك الوجوه عليها الدودُ تقتتلُ

قد طالَ ما أكلوا دهرأً و ما نعموا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة، خفيض، و دمع على الخدين يفيض ، يودع ويندب و يقول:

أهل القبور أحييتي

بعد الجدالة و السرور

بعد العَصَاة و النضارة

و التنعم و الخبور

بعد الجسان المؤنسات

و بعد ربّات الخدور

أصبحتم تحت الثرى

بين الصفائح و الصخور

حساب و كتاب

فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى : يوم البعث

يوم إنشفاق الأرض عن أهل البلى.

فيها ، و يبدو السخط والرضوانُ

يوم القيامة ، يوم يُظلم ظلم

الظالمين و يشرق الإحسانُ

{ أن تقولَ نفسُ : يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله } و تنادي أخرى : { هل إلى مرَدٍّ من سبيل }

و تستغيث أخرى : { ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل. }

فهناك ثالثة يكون الوجل:

هناك إن كنتَ قدّمت مُدخرا

تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسن

و تُنشر الصحفُ فيها كل مُحْتَقِبٍ

من المخازي وما قدّمت من حَسَنِ

قد كنتَ تنسى وتلكَ الصحفُ محصية

ما كنتَ تأني ، ولم تَظلم و لم تُخِن

فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عبرة ، تستخرج من عينه و قلبه عبرة ، تنطق لسانه رهبة وأسفاً ،  
ليدندن في الليالي:

واحسرتي ، واشيقوتي

من يوم نشر كتابيه

وأطولَ حُرني إن أكن

أوتيته بشماليه

وإذا سُئلت عن الخطأ

ماذا يكون جوابيه ؟

واخّرَ قلبي أن يكونَ

مع القلوب القاسية

كلا ولا قدمت لي

عملاً ليوم حسابية

بل إنني لشقاوتي

وفساوتي و عذابه

بارزت بالزلات في

أيام دهرٍ خاليه

من ليس يخفى عنه من

فُبح المعاصي خافية

ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القلب الحي فنفضّم له قصة الأيام الثلاثة هذه . وأما أموات القلوب فذرهم في ركستهم يتخبطون.

{ذرهم يأكلوا و يتمنعوا و يلههم الأمل فسوف يعلمون } تَمَتَّعَ أَكْلَةَ الْخَصِرَةِ الَّتِي حَدَّثَنَا عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ( أَكْلَةَ الْخَصِرَةِ أَكَلْتُ.

حتى إذا امتدت خاصيرتها : استقبلت الشمس.

فاجترت وثلطت ، وبالت.

ثم عادت فأكلت)

هكذا كالخرفان تماماً ، يأكلون و ينامون ، فيتغوطون ، فيعودون إلى الأكل ، ولا شيء آخر.

تعست حياتهم!!

فتدبر أمرك أيها المسلم و تأمل.

وقف ولا تعجل.

فإنك لمتحن ، و بكسبك مرتهن.

وإنه:

سيأتيك يوم لست فيه بمكرم

بأكثر من خثو التراب عليك

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرم لك.

يقولون : كان رحمه الله صديقاً لنا ، ولا بد أن نكرمه ، وواجب أن نحضر لنحثوا التراب عليه.

وكم قد رأينا فتى ماجداً

تفرّع في أسرة ماجده

رماه الزمان بسهم الردي

فأصبح في التلة الهامدة

فاذكر، واتعظ، ولا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل عَسَيْتَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَنْجُو، وَتَفُوزُ بِبَعْضِ مَا الْمُؤْمِنُ يَرْجُو...

من كتاب "الرقائق" للأستاذ محمد أحمد الراشد.